

فن التطريز الحريري بمدينة الجزائر في العهد العثماني

شريعة طيان
أستاذة مكلفة بالدروس
معهد الآثار - جامعة الجزائر

الملخص :

يعتبر التطريز الحريري لمدينة الجزائر في العهد العثماني فنا محليا، ينفذ بخيوط حريرية متعددة الألوان على قماش كتاني أو منخلي شفاف أو أبيض اللون أو حريري. وأكثر الألوان استعمالا هي الأحمر والأزرق الداكن والبنفسجي المائل للأزرق وبهذه الألوان يمكن تمييز مجموعتين من التطريز تميزت بهما مدينة الجزائر. أما التقنية المستعملة في تنفيذ التطريز، فتعددت بتعدد الغرز سواء كانت رئيسية أو ثانوية بإستعمال نوع خاص يسمى بالقرقاف. إستعمل التطريز في ثلاثة أنواع من القطع: في ملابس الرأس كالبنيقة والوشحة كالنشفة والستائر المستعملة في أبواب الغرف.

Résumé :

L'art de la broderie d'Alger à l'époque ottomane est une production strictement locale.

Elle est exécutée en soie de couleurs, le plus souvent sur étamine de lin, toile transparente quelque fois sur tissu blanc, ou sur soie blanche ou de couleur claire.

Les couleurs des soies les plus fréquentes sont le rouge écarlate, le bleu sombre et le violet tirant sur le bleu. On distingue deux familles : les broderies rouges et bleues et les broderies violettes.

La technique employée, comporte des points connus sous des noms arabes, ce sont : le ma'alqa, le zelile, le menezzel et le metarha. Et leur emploi se trouve dans trois genres de pièces : les coiffures (tels que les benika), les écharpes dits tanchifa et les rideaux que l'on pendait aux portes des chambres.

La pièce à broder est tendue sur un métier à broder appelé GUERGAF fait de bois blanc, ou de bois plus sombre incrusté de nacre et d'ivoire.

يعتبر التطريز من المظاهر الفنية للحضارة الإسلامية التي اقتبسته من تقاليد الشرق القديم، وساعد على تطوره توفر مادة الحرير التي ينفذ التطريز بها بواسطة الإبرة باستعمال خيوط ملونة في الغالب¹ و تعرف هذه العلة بالرقمة ولهذا يطلق على الطراز عادة اسم الرقم².

ويدخل في عملية التطريز مواد مختلفة مثل الصوف والحرير والقطن والأصبغة والإبر والأقمشة وتجهيزات أخرى مختلفة متعددة مثل الرسومات، كما يتطلب من الصانع (الرقام) معرفة كافية بالرسم والألوان بالإضافة إلى الذوق الفني.

وكان التطريز ينفذ على منسوجات موحدة اللون و بخيوط متعددة الألوان بحيث تظهر الزخرفة بارزة أو مسطحة حسب الغرض المتبعة. و قد تكون الزخرفة مستقلة عن القماش ثم تثبت عليه. أما نوع القماش المستعمل فهو على نوعين: عادي كالكتان والقطن والقنب أو ثمين كالحرير والساتان والقطيفة.

وقد كانت الأقمشة المراد طرزها تثبت على نول أو يستعمل الطارة كي ينجز العمل بتقنية جيدة. ويستعين المطرز في بعض الأحيان ببيان يحتوي على مختلف الغرز الزخرفية ورسومات معقدة. ومن أهم القطع التي كانت تزين بالتطريز هي المناديل والأحزمة والأزر والوسائد والمحارم وملابس الرأس وأغطية الفراش إضافة إلى الستائر.

وفي الجزائر كما في باقي بلاد المغرب تطوّر فن التطريز بنوعيه: الطرز الحريري والطرز الذهبي في كل أوساط المجتمع الغني منه والفقير اعتمادا على التقاليد الأندلسية التي انتشرت بكثرة منذ القرن 9 هجري/ 15 ميلادي. وهذا ما تشير إليه معظم المصادر والمراجع التي تناولت التأثيرات الأندلسية في بلاد المغرب وخاصة مدن الرباط وفاس وتلمسان والجزائر وتونس، حيث حافظ الصانع بهذه المدن على طرق التطريز بالذهب والفضة على الأقمشة والجلود، وأظهروا مهاراتهم في طرز السروج والسترات بمختلف أنواعها والقفاطن والألبسة بوجه عام.

¹ Leloir M, Dictionnaire du costume et de ses accessoires, des armes et des étouffes, des origines à nos jours, Paris, 1951, p, 56.

² Lombard M, Les textiles dans le monde musulman du 7è au 12 è siècle, Paris, La Haye, New York, 1998, p, 235.



لوحة 2: نوع من الطرز بالخيوط الحريرية

ولم يقتصر ذلك على الصنّاع بل تميّزت بعض العائلات بمحافظتها على طرق الطرز الأندلسي فتوارثتها الفتيات الأندلسيات وأدخلن عليها الأساليب العثمانية مما أعطى لها طابعا خاصا.

لقد حافظت مدينة الجزائر على التقاليد الأندلسية مع التأثير بالطرق الفنية التركية العثمانية التي أصبحت متبعة منذ القرن 10 هجري/ 16 ميلادي لاسيما ما يتصل بالتطريز بالخيوط الحريرية التي كانت جنبا إلى جنب مع الخيوط الذهبية في قطعة واحدة على قماش خفيف ورقيق، ويكون في غالب الأحيان من الحرير و الكتان¹.

وهذا ما يسمح لنا بالقول بأن مهارة صنّاع مدينة الجزائر كانت تتجلى خاصة في التطريز بالذهب على أقمشة متنوعة وعلى وجه الخصوص القطيفة المستعملة في خياطة السترات والقفاطن ومادة الجلد المستعملة في صناعة السروج والأحذية الطويلة والبابوشات بالإضافة إلى الحرير المستعمل في أحزمة النساء².

كما كان للمرأة في العهد العثماني اهتمام كبير بفن التطريز، فتفوّقت في ذلك على الصنّاع من الرجال لاسيما فيما يتصل بمطرزات ملابس الرأس و المحارم اليدوية و كذلك تطريز السترات و القفاطن الخاصة بالرجال و النساء. إضافة إلى الالبسة و الفراش و الوسائد الخاصة بالتأثيث التي كانت قريبة الشبه بتلك التي كانت تصنع بالاناضول و بلاد المشرق الإسلامي مع فارق في نوع الإصباغ الجيدة³.

وبذلك يمكن اعتبار الطرز في مدينة الجزائر محلي في العهد العثماني (صورة رقم 1). كما أنه يتمييز بنوعين أحدهما خاص بالتطريز بالخيوط الحريرية و الآخر يتمثل في التطريز بالخيوط الذهبية.

فالتطريز بالخيوط الحريرية كان يستعمل فيه خيوط ذات ألوان على قماش منخلي أو قماش شفاف أو قماش أبيض من القطن الجيد الحبك و كذلك على الكتان الرقيق و الخفيف و الشفاف الذي شاع استعماله في فترة متأخرة أي منذ القرن 13 هجري/ 19 ميلادي. كما استعمل نسيج حريري أبيض اللون أو لون فاتح⁴.

ومما تجدر الإشارة إليه أن ألوان الحرير القديمة كانت أكثر لمعانا و ثباتا و حدة و بإمكانها مقاومة أشعة الشمس عندما تعرّض لحرارتها. إنّ الألوان الأكثر استعمالا هي: الأحمر القرمزي و الأزرق القاتم و البنفسجي المائل إلى الأزرق⁵. وهذه الألوان شبيهة بالألوان المستعملة في تركيا التي تغلب على منسوجاتها بالإضافة إلى اللون الأخضر.

¹ Ricard P, Pour comprendre l'art musulman dans l'Afrique du nord et en Espagne, Paris, 1924, p, 286.

² Guiauchain C, El Djazair, 2 è édition, Alger, 1909, P, 119.

³ سبنسر وليام، الجزائر في عهد رياس البحر، ترجمة، زبادية عبد القادر، الجزائر، 1980، ص ص، 91-92.

⁴ Wace, A, J, B, Calalogue of algerian embroiedrerries. London, 1935, p, 14.

⁵ Marçais G, Les broderies turques d'Alger, Reprinted from ars islamica, vol, 4, 1937, p, 146.

ومن خلال هذه الألوان يمكن تصنيف مجموعتين من التطريز تميّزت بهما مدينة الجزائر على وجه الخصوص

وهما:

- المجموعة الأولى: تتضمن هذه المجموعة التطريز باللونين الأحمر والأزرق. وهذه المجموعة أقدم من المجموعة الثانية كونها أكثر دقة، ومنجزة على قماش أجمل (صورة رقم 2).

- المجموعة الثانية: تشمل هذه المجموعة التطريز باللون البنفسجي إلا أنها أقل دقة وخشنة الانجاز إذا ما قورنت بالمجموعة الأولى إضافة إلى ذلك أنها تنقذ على أقمشة كتانية وقطنية¹ (صورة رقم 3).

زيادة عن هذه الألوان هناك ألوان أخرى، الأزرق الفاتح والأخضر ومشتقاته والأصفر الليموني والمغرة والأسمر المائل إلى الصفرة والوردي الفاتح والفاقع والأبيض وأخيرا الأسود. وهذان اللونان الأخيران وظيفتهما تحديد المساحات الملونة².



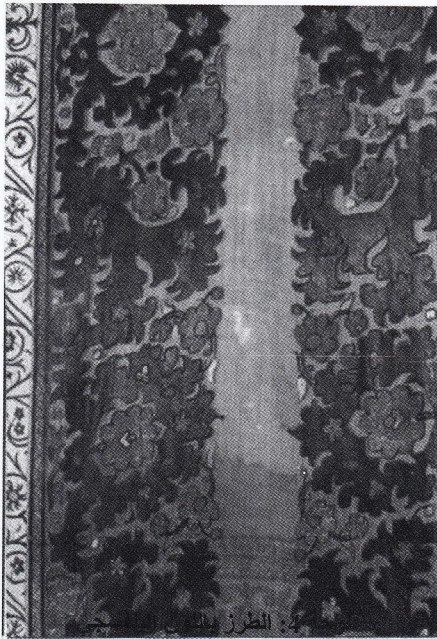
لوحة 3: الطرز باللونين الأحمر والأزرق

استعمل المطرزون تقنيات متعدّدة ومتباينة في تطريز أعمالهم، وبتعدّد التقنيات تتعدّد الغرز الرئيسية كانت أو ثانوية. فالغرز الرئيسية و الشانعة في الطرز الجزائري تتمثل في أربع غرز وهي: المعلقة والزليج و المنزل والمطرحة. أما الغرز الثانوية فتتلخص في غرزة التربيعة والريشة والمسطحة والمستقيمة والسلسلة والصفيرة (شكل رقم 1- هـ-ز-س).

الغرز الرئيسية وأهمها غرزة المعلقة: وهي مائلة أو منحرفة، تظهر متشابهة في وجه و قفا القماش. ويتم انجازها باستعمال أربع أو ست عقد (شكل رقم 1-أ).

¹ Id, p, 151.

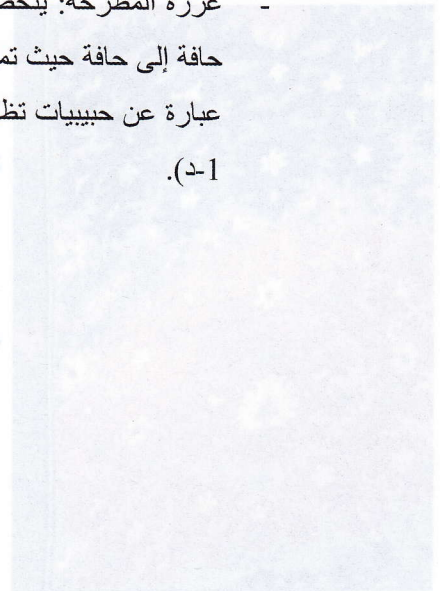
² Id, p, 146.



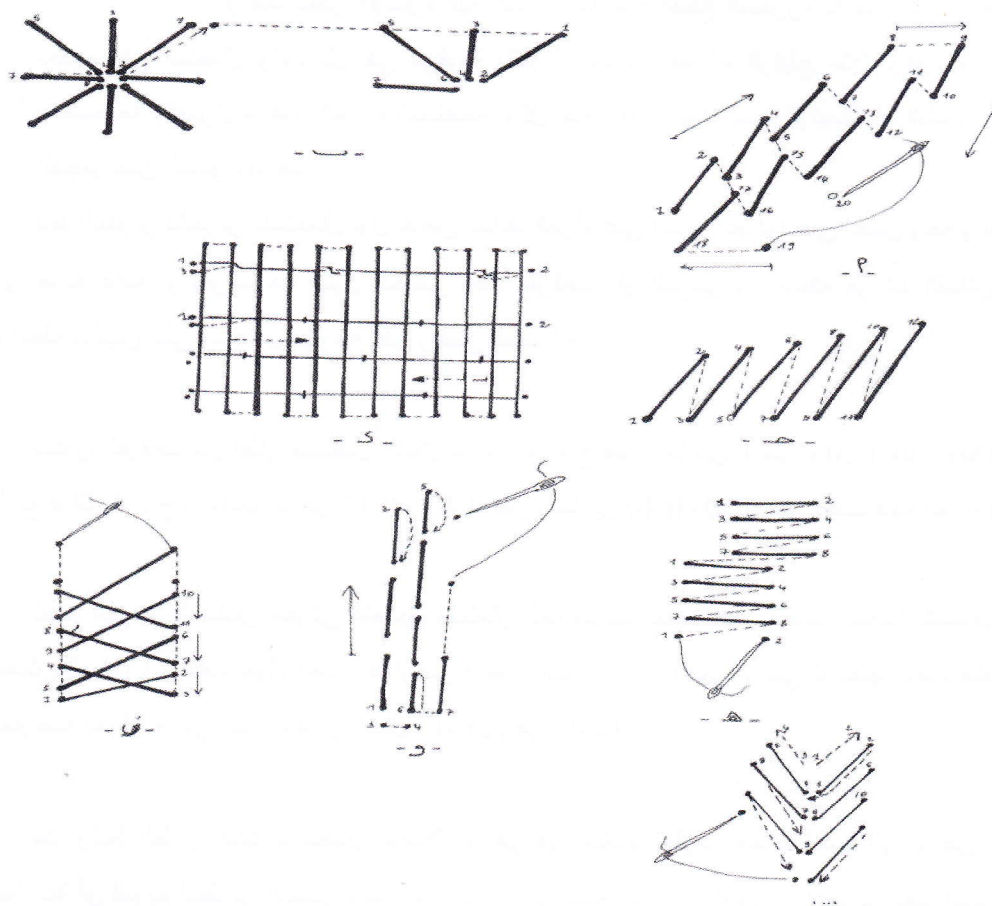
غرزة الزليلج: وهي عبارة عن مربعات خزفية ذات أشكال نجمية ولهذه الغرزة خلفية. وتعرف كذلك باسم الغرزة التركية وهي تشبه بذلك بعض الغرز المستعملة في البلقان. تكون هذه الغرزة فتحات نجمية الشكل تعطي عدة أشكال منها سطر من النجوم. وإذا كان مربع فتوضع نجمة في البداية ثم اثنتان فتلاها إلى أن يملأ المربع (شكل رقم 1-ب).

- غرزة المنزل: وهي غرزة مصقفة عبارة عن صف من الخيوط المتلاحمة فيما بينها، وليس لديها ظهرا. تنفذ على الحرير أو على قماش خيوطه مشدودة بحدّة، وقليلة التنفيذ على قماش منخلي (شكل رقم 1-ج).

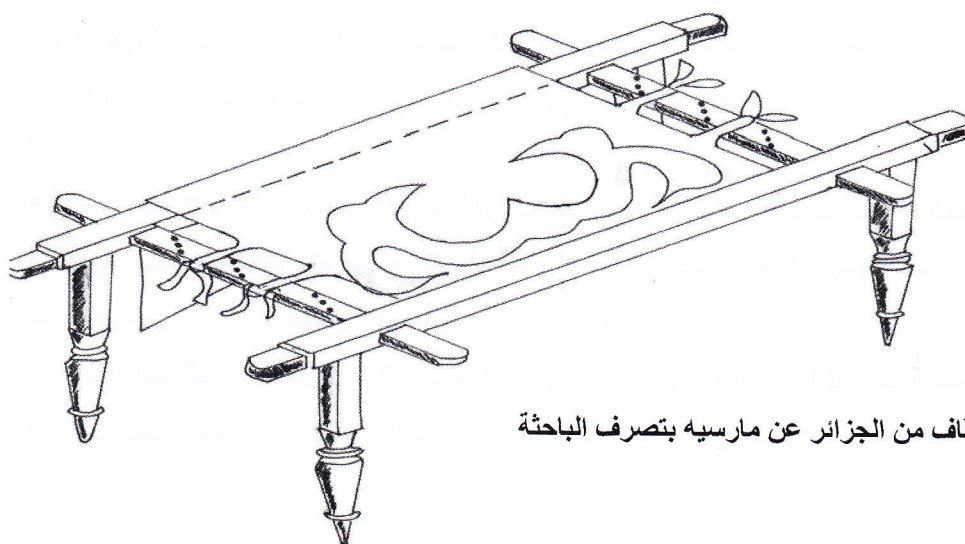
- غرزة المطرحة: يتحصّل عليها بترتيب الخيوط من مسافة إلى أخرى ومن حافة إلى حافة حيث تملأ المساحات الفارغة المراد تطريزها. وهذه الغرزة عبارة عن حبيبيات تظهر فوق السطح وتنفذ على قماش مشدود أو حرير وهي غرزة محلية خالصة¹ (شكل رقم 1-د).



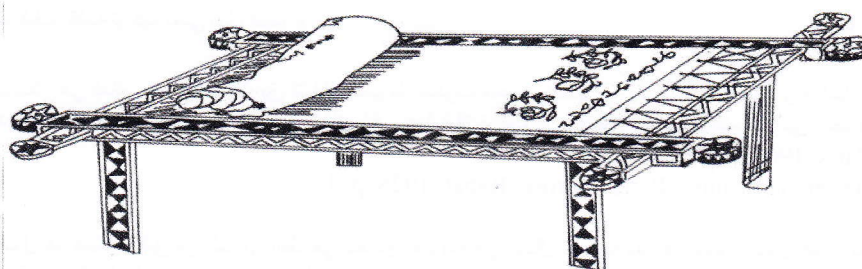
¹ - Wacer, Op cit, p, 147.



شكل 1 : أنواع الغرز (عن مارسى)



أ- قرقاف من الجزائر عن مارسىه بتصريف الباحثة



ب- قرقاف من تركيا عن أرسيفين

و مما تجدر الإشارة إليه عند دراسة هذه القطع المطرزة يلاحظ عدم مزج هذه الغرز مع بعضها في استعمال واحد بل هي مرفوقة بالغرز الثانوية. فغرزة الزليلج مثلا ترفق عادة بغرزة التريبع والمسطحة والمنزل مرفقة بالغرزة المستقيمة. وكل هذه الغرز سواء منها الرئيسية أو الثانوية فهي موجودة في المجموعتين السابق ذكرهما.

ينفذ التطريز بالحريز باستعمال نول خاص يساعد المرأة على انجاز أعمالها على أحسن وجه و يظهر عند إتمامه ذي جودة عالية. و يعرف هذا النول الخشبي باسم القرقاف* أو المرمى و وظيفته هو شد القماش المراد تطريزه بواسطة دبابيس على وسادة موضوعة على ركبتى المطرزة

يتكوّن القرقاف من إطار مستطيل الشكل ممدود يتراوح طوله ما بين 1 متر و 1.20 متر، وبه مسندان مزودان بأربع قوائم يتراوح ارتفاعها ما بين 0.35 و 0.40 متر و ما بين 0.40 و 0.50 متر حسب قامة المرأة وهي جالسة

تثبت أطراف المسندين بنقرتي التعشيق تستلزمان العارضات المتحركة و المسماة محليا بالسيف. وتثبت أجزاء القماش المطرزة و تلف حول إحدى عوارض الإطار الطويلة، أما الأجزاء التي لم تظهر بعد، فتلف بدورها حول العارضة الموازية التي تمتد و سيران العمل¹ (شكل رقم 2-أ-ب).

لقد ربط الطرز كذلك باستعمال الدانتلا* و هي في أساسها تطريز مخرم تنقسم إلى نوعين: التطريز بغرزة مقطوعة أي لتنويع التطريز الممتلئ بالخياط الكتانية على نسيج كتاني أو قطني. و التطريز بجبد الخياط التي تتم بسل الخياط من النسيج و حفظ بعض منها التي تربط و تشدّ مختلف أقسام الرسم المراد طرزه. كما يمكن الطرز في قماش رقيق، ثم تمديد سردات هذه الأقمشة الرقيقة أكثر فأكثر إلى أن تكون دانتلا مسماة بالشبيكة. ثم تملأ بعض السردات تبعا للزخرفة المنفذة بغرزة مكررة لتحصل على دانتلا مطرزة². وعلى هذا النحو يكون لدينا نوعين من الدانتلا: الدانتلا المسماة محليا بالدريز و أخرى تسمى بالشبيكة³ (شكلا رقم 3 و 4).

كان عمل الدانتلا و الشبيكة من اختصاص الأندلسيات و كانت لها نفس المرتبة مع فن التطريز حيث تستعمل في الملابس المخصصة لجهاز العروسة، وقد كانت المرأة هي التي كانت تنجزها بنفسها. كانت الدانتلا معروفة بصورة كبيرة في مدن الجزائر و البلدية و القليعة و شرشال و قسنطينة و جبل⁴

كما ارتبط التطريز بالحريز كذلك باستعمال التول* الذي يتطلب عملا كبيرا في انجاز قطعة صغيرة، إذ قبل البدء في العمل يجب اختيار الرسم و نوعية الخيط. يعهد التصميم فيما بعد إلى مصمّم البطاقات الذي

*القرقاف: كلمة تركية تعني نول التطريز.

¹ Wace, op.cit, p, 146.

*الدانتلا: هي قماش يصنع عن طريق تشابك الخياط بأسلوب معين. و تظهر به نقوش ذات فتحات و فراغات جميلة تحدث عادة عن طريق خياط السدى أما خياط اللحمة فلا تلعب إلا دورا ثانويا في عملية التخريم و أن مهمتها هي إيجاد التماسك بين الخياط و تثبيت الفراغات.

² Migeon G, Les tissus d'art, Paris, 1909, p, 370.

³ Ricard P, Dentelles algériennes et marocaines, Paris, La rose, Rabat, 1928, p, 15.

⁴ Id, p, 20

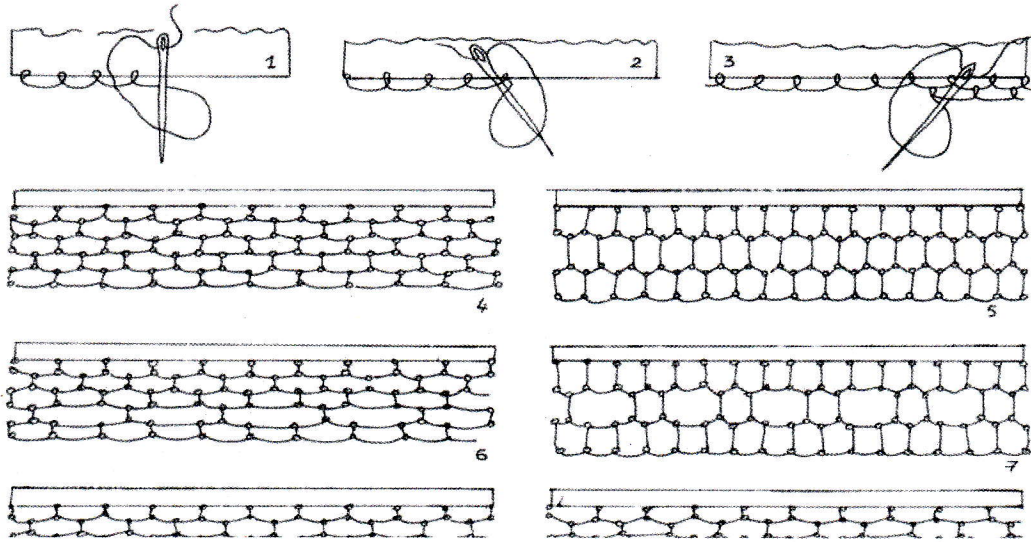
* التول هو قماش رقيق من الحرير الطبيعي تتعاشق خياطه في أشكال سداسية مفرغة. يتكون التول كبقية المنسوجات من خياط السدى وحيوط اللحمة في الأنوال الخاصة بصناعة التول.

يظهرها مع توضيح كل التفاصيل الدقيقة، و ذلك بتطابقها مع التول. يقوم بعد ذلك بإعادة التركيبات الموجودة على الورق المقسّم إلى مربعات المعد خصيصا كدليل يوجّه العامل الذي يقوم بعملية الثقب¹.

ويتم التطريز على التول بتنفيذ الأشكال بخيط مخملي أو مفتول من القطن الملمّع أسمك من خيط التول، ويمكن أن يكون مزدوجا إذا أريد أن يتحصّل على أشكال مملوءة ومشبّعة. وتتم العملية باستعمال إبرة عادية حافظتها مثلمة بحيث تمرّ بسهولة في السردات دون أن تخترق الخيوط المكوّنة له.

وتنفّذ الأشكال بطريقة حسابية دون رسم أولي. يشد التول على نول ليسهل على العاملة أن تنجز عملها بانتظام، ويمكن الحصول على الشكل بإعادة الغرزة بحيث لا تكون الأشكال ذات سعة كبيرة وإنما تأخذ مكانا صغيرا وتكون مكرّرة بلا نهاية، متصلة أو منفصلة لملأ المساحة كلها.

هذا، وقد توسّع فن التطريز بالجزائر على التول فاستعملت فيه الخيوط المعدنية المزركشة أو حرير خفيف الذي كان شائعا في الشرق الجزائري خاصة في مدينة قسنطينة التي اشتهرت بالتطريز بالخيوط المعدنية المسطحة. أما استعمالاتها فكانت في الستائر والأوشحة وأكمام القمصان².



¹ Le maire G et Chapelet, A, Les arts textiles, Paris, 1917, pp, 179-180.

² Bel M, Les arts indigènes féminins en Algérie, SL, 1939, p, 25.